العَرَبُ والبَيانُ:
تأمّلاتٌ في الطّبيعةِ البَيانيّةِ لِلشّخصيّةِ العربيّةِ

أ. د. عيسى العاكوب(*)

قِصّةُ البحث:

شاءَ الخالِقُ العظيمُ سُبْحانَه أن يُجلِّيَ عظَمتَه في أنواعِ مخلوقاتـه، فكـان كُلٌّ مِنها آيةً مِن آياتِ جَمالِه وجَلالِه وكَمالِه، دالّةً عليها، شاهِدةً عَلَى رُبوبيّتِـه فيها، مُظهِرةً عِناياتِه بها، العناياتِ التـي تبهَـرُ العقـولَ، وتـذهَبُ بـالنُّهَى كُـلَّ مذْهَب. وجاءَ خَلْقُ اللهِ سُبْحانَه الإنسـانَ آيـةَ الآيـاتِ، بِمـا حَباهُ مِـن عَظيمِ القُدُرات، وشَريفِ الكِفايات، وجليـلِ الغايـات. وتقـولُ الآثـارُ المُقـدَّرةُ: إنّ الخَالِقَ إنّما خَلَقَ الخَلْـقَ لكـي يُعْـرَف. ويقـولُ الـذِّكْرُ الحكـيمُ إنّ نَوْعًـا مِـن الخَلْقِ خاصًّا هو المَنوطةُ به معرفةُ اللهِ؛ وهو الإنسُ والجِنُّ اللّذانِ خُلِقـا مِـن أَجْلِ هذه المعرفة. ومِن عَظيمِ مظاهِرِ قَصْـدِ الخـالِقِ إلـى أن يُعْـرَفَ، تمكـينُ الإنسانِ مِن البيان. ولَعلَّه لِهذا القَصْدِ قـالَ مُنـزِلُ الكتـابِ العزيـز: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤].

ويَعِنّ لِلخاطِرِ هنا أنّ فَيْضَ الرّحمةِ الإلهيّةِ مُنداحٌ بِقُوّةٍ في تعليمِ القـرآن، وخَلْقِ الإنسانِ، وتعليمـه البيـانَ. فـإذا شـئتَ حَـدَّ الإنسـانِ بِأنّـه «المخلـوقُ

(*) ألقى الأستاذ الدكتور عيسى العاكوب عضو مجمع اللغة العربية بدمشق هذه المحاضـرة في قاعة مجمع اللغة العربية بدمشق، بتاريخ ٢٧ تشرين الأول ٢٠٢١م.

المُعلَّمُ البيان»، كما يقولُ العلّامةُ الهنديُّ عبدُالحميد الفراهيّ، لا تكونُ جانَبْتَ الصّواب. وقد يُختلَفُ في أشياءَ كثيرةٍ، لكنّنا لا نَخالُ أنّه يُختلَفُ في شأنِ تمكينِ الخالقِ العربَ مِن البَيان. وقد أبدَتِ الشّخصيّةُ العربيّةُ في سُلوكِها الذي انتهَى إلينا، وعَلِمْنا مَجاليَه، احتفاءً منقطِعَ القَرينِ بالكِفايةِ البَيانيّة، وعِنايةً قليلةَ النّظيرِ بإنشائها وتَرْبيتِها وصَقْلِها وإيصالِها إلى الغاية. ويتناولُ البَحْثُ الذي بينَ أيدينا مُناقشةَ تجلِّي المَلَكةِ البَيانيّةِ في جِنْسِ العرب، ومجالي الطّبيعة البيانيّةِ لِلشّخصيّةِ العربيّة. ويقفُ مِن أَجْلِ ذلك عندَ النِّقاطِ الآتية:

١- الدِّلالةُ البيانيّةُ في تَسْميةِ العرَبِ بِهذا الاسْمِ «عَرَب».
٢- انتباهُ العرَبِ المُفْرِطُ إلى جَمالِ الأداءِ اللّغويّ خاصّةً، بينَ جُمْلةِ مَظاهِرِ الجَمالِ الباديةِ في الوجود.
٣- تطلُّبُ العرَبِ صِفاتِ جَمالِ الخِلَقِ البشَريّة صِفاتِ جَمالٍ لِلْبَيانِ العربيّ.
٤- اجتهادُ العَرَبِ إلى الغايةِ في تحسينِ مادّةِ البيانِ في اللّغة العربيّة.
٥- إظهارُ اللّغةِ العربيّةِ العربَ مُنقادينَ لِلْفِطْرةِ والطّبع.
٦- القرآنُ الكريمُ يعزِّزُ الطّبيعةَ البيانيّةَ لِلشّخصيّةِ العربيّةِ واللّغة العربيّة.
٧- المحصولُ النّهائيّ.

وستكونُ لنا وِقْفةٌ عندَ كُلٍّ مِن هذه النِّقاطِ عَلَى الوِلاء:

أوّلًا- الدِّلالةُ البيانيّةُ في تَسْميةِ العرَبِ بِهذا الاسْمِ «عَرَب»:

يَلفِتُ الانتباهَ في الوَضْعِ اللّغويِّ العربيّ أنّ الواضِعَ الذي وَضَعَ اسْمَ «العَرَب» عَلَمًا عَلَى هذا الجِنسِ مِن البَشَر كأنّه أرادَ بذلك ظهورَ الإبانةِ والإعرابِ والإفصاح فيهم عَلَى أَشُدِّها. يقولُ أحمدُ بنُ فارس (ت ٣٩٥هـ): «العَيْنُ والرّاءُ والباءُ أُصولٌ ثلاثةٌ: أحَدُها الإبانةُ والإفصاحُ، والآخَرُ النّشاطُ

وطِيبُ النَّفْس، والثّالِثُ فَسادٌ في جِسْمٍ أو عُضْوٍ»[١]. ويُفهَمُ مِن بعضِ الآثارِ أنّ العربَ إنّما سُمُّوا بذلك لِصِفةٍ بارزةٍ جدًّا في لِسانهم، وهي الإعرابُ والبيانُ. يقولُ ابنُ فارس أيضًا: «فأمّا الأُمّةُ التي تُسمَّى «العَرَبَ»، فليسَ بِبَعيدٍ أن يكونَ سُمِّيَتْ «عَرَبًا» مِن هذا القياس؛ لِأنّ لِسانَها أعرَبُ الألسنةِ، وبَيانَها أجودُ البَيانِ. ومِمّا يُوضِّح هذا الحديثُ الذي جاء: «إنّ العربيّةَ ليسَتْ بابًا واحِدًا، لكنّها لِسانٌ ناطِقٌ». ومِمّا يَدلُّ عَلَى هذا أيضًا قولُ العَرَبِ: ما بِها عَرِيبٌ، أي: ما بِها أحَدٌ، كأنّهم يُريدونَ: ما بها أنيسٌ يُعْرِبُ عن نفسِه»[٢].

ويُفهَمُ مِن هذا أنّ «العربَ» استحقّوا هذا الوَصْفَ الذي صار اسْمًا لهم مِن إعرابِ لِسانِهم وجَودةِ بَيانهم، وأنّه كُلّما كانَتِ الجماعةُ مِن العَرَبِ أفصَحَ وأبينَ في لِسانِها كانَتْ أدْخَلَ في العربيّة. ولَعلّه مِن هنا يجيءُ قولُ الخليلِ بنِ أحمد: «العَرَبُ العاربةُ هم الصّريحُ. والأعاريبُ: جَماعةُ الأعراب. ورَجُلٌ عربيٌّ. قال: وأعربَ الرَّجُلُ: إذا أفصَحَ، وهو عَرَبانيُّ اللِّسانِ: فَصيحٌ... والعَرَبُ المُستَعْرِبةُ هم الذين دخلوا بعدُ، فاستعرَبُوا وتعرّبوا»[٣].

ويتراءى هذا الذي قُلْناهُ انطباعًا مستقِرًّا عندَ ذَوِي التّحقيقِ في عَصْرِ تدوينِ العِلْمِ العربيّ. فإلى نحوٍ مِن هذا ذَهَبَ ابنُ جِنّيّ (تـ ٣٩٢هـ) المُعاصِرُ لِابنِ فارس، حَيثُ يقولُ في شأنِ القولِ عَلَى «الإعرابِ»: «هو الإبانةُ عن المعاني بالألفاظِ؛ ألا ترى أنّكَ إذا سَمِعْتَ: أَكْرمَ سَعيدٌ أباهُ، وشَكَرَ سَعيدًا أبوه، عَلِمْتَ بِرَفْعِ أَحَدِهما ونَصْبِ الآخَرِ الفاعِلَ مِن المفعول. ولو كان الكلامُ شَرْجًا[*] واحِدًا لَاستبهَمَ أحَدُهما مِن صاحِبِه... وأمّا لَفْظُه فإنّه

(١) معجم مقاييس اللّغة ٤/ ٢٩٩.

(٢) السّابق، ٤/ ٣٠٠.

(٣) نفسه، ٤/ ٣٠٠.

(*) ضَرْبًا واحِدًا.

مصدرُ «أعرَبْتُ عن الشّيء»: إذا أوضحْتَ عنه. وفُلانٌ مُعْرِبٌ عَمّا في نفسِه، أي: مُبينٌ له، ومُوضِحٌ عنه... وأصْلُ هذا كلِّه قولُهم: «العَرَب»؛ وذلك لِما يُعزَى إليها مِن الفصاحةِ والإعرابِ والبيان. ومِنه قولُه في الحديث: «الثَّيِّبُ تُعْرِبُ عن نفسها»(٤).

ويُفضي التّأمّلُ لِاستعمالاتِ أصْلِ العَيْنِ والرّاءِ والباءِ إلى القول: إنّ «العَرَبَ» في أَصْلِ المعنى صِفةٌ بَيانيّةٌ لِسانيّةٌ عُرِفَ بها هذا الجِنْسُ، فأُطْلِقَتْ عليه اسْمًا. فالعَرَبُ هم القومُ المُعْرِبونَ بِألسنتهم عن مُراداتهم، المُفصِحونَ ببيانهم عن مُستكِنّاتِ صُدورِهم. ولَعلّه يُنبِّهُ عَلَى هذا أيضًا قولُ صُحار بنِ عَيّاشٍ العَبْديّ حِينَ سُئِلَ عن ماهِيّةِ البلاغةِ التي استحكمَتْ في قَوْمِه عبدِ القَيْسِ: «شَيءٌ تَجيشُ به صُدورُنا، فتقذفُه عَلَى ألسنتنا».

ويُبيِّنُ الرّاغِبُ الأصفهانيُّ الكيفيّةَ الكامِلةَ لِما قَدَّمْناهُ مِن بَيانِ لِسانِ العربِ، الذي نشأ عنه وَصْفُهم بـ «العَرَب»، ووَصْفُهم ووَصْفُ كلامِهم بـ «العربيّ»، إذ يقولُ: «العَرَبُ: وَلَدُ إسماعيلَ، والأَعْرابُ جَمْعُه في الأَصْلِ، وصار ذلك اسْمًا لِسُكّانِ البادية... والعَرَبيُّ: المُفْصِحُ، والإعرابُ: البَيانُ... والعَرَبيُّ: الفصيحُ البيِّنُ مِن الكلامِ قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢](٥).

ثانيًا- انتباهُ العَرَبِ المُفْرِطُ إلى جَمالِ الأداءِ اللّغويّ خاصّةً، بينَ جُمْلةِ مظاهِرِ الجَمالِ الباديةِ في الوجود:

يَلفِتُ الانتباهَ كثيرًا إيلاءُ العَرَبِ انتباهًا خاصًّا لِجَمالِ ما تُقدّمُه المَلَكةُ البيانيّةُ اللِّسانيّةُ. فمعَ أنّ صِفاتِ الجمالِ المادّيِّ والمعنويِّ تُحيط بهم مِن كُلِّ ناحيةٍ، فتُبصِرُها أعينُهم، وتَسْمعُها آذانُهم، وتتنسَّمُ عبيرَها مَشامُّهم، وتدركُ

(٤) الخصائص، ١/ ٣٥-٣٦.

(٥) مفرداتُ ألفاظِ القرآن، ص٥٥٦-٥٥٧.

انسجامَها وتناغُمَها وتآلُفَ أجزائها مَداركُهم وأفهامُهم، أقولُ: معَ ذلك كُلِّه خَلَبَ ألبابَهم جَمالُ بَناتِ الأَلْسُن، وسِحْرُ لآلِئِ المنطِق. فحتّى المرأةُ التي هي مَحَلٌّ لِمَظاهِرَ كثيرةٍ مِن المحاسِن، ومَرْتَعٌ لِلْعَيْنِ المتشوِّفةِ إلى كُلِّ ما يروقُها ويُبهجُها، ومَوْضِعٌ لِلْحُسْنِ الذي يُعجِبُ حتّى الأنبياءَ كما يقولُ الخِطابُ الإلهيُّ للنّبيّ محمّدٍ عليه الصّلاةُ والسّلام: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، أقولُ: حتّى المرأةُ هذه يُفْرِطُ الشّاعِرُ في الانتباهِ إلى سِحْرِ بَيانِها وخِلابةِ حديثِها دونَ غيرِه مِن صفاتِ جَمالها، فيقولُ الرّاعي النُّمَيريُّ مَثَلًا:

وحَديثُها كالغَيْثِ يسمَعُه ... راعي سِنينَ تتايعَتْ جَدْبًا

فأصاخَ يرجو أن يكونَ حَيًا ... ويقولُ مِن فَرَحٍ: هَيا رَبّا(٦)

ولعلّ أبياتَ ابنِ الرّوميِّ أكثَرُ دِلالةً في هذا الشّأن، حينَ يقولُ:

وحَديثُها السِّحْرُ الحَلالُ لَوَ انّهُ ... لم يَجْنِ قَتْلَ المُسْلِمِ المتحرِّزِ

إن طالَ لم يُمْلَلْ، وإن هيَ أوجزَتْ ... وَدَّ المحدَّثُ أنّها لم تُوجِزِ

شَرَكُ القُلوبِ، وفِتْنةٌ ما مِثْلُها ... لِلْمُطْمئنِّ، وعُقْلةُ المستوفِزِ(٧)

وليس ثَمّةَ في الظّاهِرِ ما يحولُ بينَ المَرْءِ وبينَ أن يقولَ: إنّ تأخُّذَ قلوبِ العَرَبِ بِأمثِلةِ البيان دَفَعَهم إلى أن يَخُصّوه بالثّناءِ حتّى حِينَ يكونُ مُحاطًا بِمَظاهِرَ أُخَرَ لِلْحُسْنِ والجَمال، حتّى إنّ المَرْءَ يَخالُ أنّ القومَ جُبِلوا عَلَى الافتتانِ بهذه الخَلّة الكريمة. فالجاحظُ، مَثَلًا، يحدّثُنا عن عُمَرَ بنِ عبدالعزيز رضي اللهُ عنه الذي كان مأخوذًا ببيانِ بَني أَسَد، ويروي لنا قولَهُ: «ما كلّمَني رَجُلٌ مِن بَني أَسَدٍ إلّا تمنَّيْتُ أن يُمَدَّ له في حُجّتِه، حتّى يكثُرَ كلامُه فأسمَعَه»(٨).

---

(٦) يُنظَرُ في هذا: الخصائص لابن جنّي ١/ ٢٩. والتّتايُعُ: التّتابُعُ في الشّرّ. والحَيا: المطَر.

(٧) السّابق، ١/ ٣٠. وعُقْلةُ المستوفِز: المانعةُ المتهيِّئ لِلانصرافِ مِن الانصراف.

(٨) البيان والتّبيين، ١/ ١٣١.

ثالثًا – تطلُّبُ العربِ صِفاتِ جَمالِ الخَلْقِ البشَريّة صِفاتِ جَمالٍ لِلْبيانِ العربيّ:

يرى المتأمِّلُ في تاريخِ التّجربةِ الجماليّةِ عندَ العرب، أنّهم آثَروا في الخِلَقِ البشَريّةِ صِفاتٍ خاصّةً تَغنَّوا بها، وأعْلَوا مِن شأنها، وذَمّوا أضدادَها، وعابوا مَن بَدَتْ عليه. يقولُ ابنُ جِنّي: «ومِمّا يَدُلّكَ عَلَى لُطْفِ القومِ ورِقّتِهم، معَ تبذُّلهم وبَذاذةِ ظواهِرِهم، مَدْحُهم بِالسَّباطةِ والرَّشاقةِ، وذَمُّهم بِضِدِّها مِن الغِلْظةِ والغَباوة»[٩]. وقد مَثّلَ لِذلك بعَدَدٍ مِن الشّواهِد، نكتفي مِنها باثنَيْنِ:

– تقولُ زينَبُ، أُختُ يزيدَ بنِ الطَّثْرِيةِ، مِن كلمةٍ ترثيهِ بها:

فَتًى قُدَّ قَدَّ السَّيْفِ لا مُتآزِفٌ ... ولا رَهِلٌ لَبّاتُهُ وبَآدِلُهْ

تُشيرُ في هذا إلى قَدِّ أَخيها الرَّشيقِ الذي قُطِعَ قَطْعَ السَّيفِ عَلَى غِرارٍ واحِدٍ، فلا هو بِقَصيرٍ مُتدانٍ، ولا مُسترخي لَحْمِ المَنْحَرِ والصَّدْر.

– ويقولُ جميلُ بُثَينةَ في رَجُلٍ أضافَه وقدّمَ له طَعامًا شَهيًّا، فأخذَ يُحدِّثُ جَميلًا عن بِنْتِ عَمٍّ له تَعلّقَها قَلْبُه، ويأكُلُ حتّى أتَى عَلَى الطّعامِ المقدَّمِ كلّه:

وقد رابَني مِن جَعْفَرٍ أنّ جَعْفَرًا ... يَبُثُّ هَوَى لَيْلَى، ويشكو هَوَى جُمْلِ

فلَوْ كُنتَ عُذْرِيَّ الصَّبابةِ لم تكُنْ ... بَطينًا، وأَنساكَ الهَوَى كَثْرةَ الأَكْلِ[١٠]

وأمثالُ هذا كثيرةٌ في كلامِ العرب. والمتأمِّلُ في كلامِهم يهتدي إلى أنّهم آثَروا صفاتِ السَّباطةِ والرَّشاقةِ، وهي هنا حُسْنُ القَدِّ واستِواؤه ولُطْفُه، صِفاتٍ لِكلامِهم وبَيانِهم، الذي اختاروا فيه مِثْلَ ما اختاروا لِأبدانهم، القليلَ الدّالَّ عَلَى الكثير، والخفيفَ عَلَى اللِّسانِ المنزلِقَ عليه كما ينزلِقُ الدُّهنُ.

---

(٩) الخصائص، ١/ ٧٩.

(١٠) السّابق، نفسه. ورابني: رأيتُ مِنه ما يَريبُني وأكرَهُه. والبطينُ: الكبيرُ البَطْنِ ذو البَدانة.

يقولُ الجاحظُ: «وأَجْودُ الشِّعْرِ ما رأيتَه مُتلاحِمَ الأجزاءِ، سَهْلَ المخارِج، فتعلَمُ بذلك أنّه قد أُفرِغَ إفراغًا واحِدًا، وسُبِكَ سَبْكًا واحِدًا، فهو يجري عَلَى اللِّسانِ كما يجري الدّهان»(١١).

ومِن هنا، يُستطاعُ القولُ: إنّ صِفاتِ الجمالِ في بَيانِهم هي عَيْنُ الصّفاتِ التي آثَرُوها لِلْخِلَقِ، وهَزّتْهم، وحَرّكَتْ طِباعَهم.

رابعًا – اجتهادُ العَرَبِ إلى الغايةِ في تحسينِ مادّةِ البيانِ في اللّغةِ العربيّةِ:

ليس مِن شأنِنا القَطْعُ في أَصْلِ نَشْأةِ اللّغة، أهي إلهامٌ أم اصطلاحٌ؛ لِأنّنا لا نملِكُ عَيْنَ اليقينِ في ذلك. ولَيتَنا كُنّا نعلَمُ، إذَنْ لَأَنِسْنا، والعَرَبُ تقولُ: مَن عَرَفَ أنِسَ، ومَن جَهِلَ استوحشَ. ومعَ أنّنا نعدَمُ خَبَرَ البَدْءِ والنَّشْأة، نمتلكُ بعضَ الأخبار في شأنِ اجتهادِ العَربِ إلى الغايةِ في الحِفاظِ عَلَى مستوًى لُغَويٍّ يضمَنُ لِلْعربيّةِ وبَيانِها مادّةً لُغويّةً أقدرَ ما تكونُ إبانةً وإفصاحًا وإظهارًا لِلمقاصد. ويُفهَمُ مِمّا وَصَلَ إلينا مِن أخبارٍ في هذا الشّأنِ أنّ الشّخصيّةَ العربيّةَ في غايةِ الحَساسيَةِ لِمَظاهِرِ الجمالِ الباديةِ في الأنفُسِ والآفاق. ونحتاجُ في المقامِ الذي نحنُ فيه إلى تقديمٍ في شأن هذه الحساسيَةِ الكاشِفةِ عندَ العرب في غيرِ اللّغة؛ لِيكونَ ذلك أساسًا للبناءِ عليه في شأنِ العِنايةِ العربيّةِ بالبيانِ العربيّ، الذي استدَّ ساعِدُه كثيرًا قَبْلَ نزولِ القرآنِ، فكان مؤهَّلًا تمامًا لِلابتهاجِ بالمثَلِ الأعلى اللّغويّ في القرآن الكريم.

نعم، يبدو أنّه توفَّرَ لِأَهْلِ هذه اللّغة قَدْرٌ ظاهِرٌ جِدًّا مِن الحَساسيَةِ الإدراكيّةِ إزاءَ أشياءِ الوجود. ومِن ذلكَ مَثَلًا ما يذكرُ ابنُ جِنّي مِن قولِه: «وحدّثَني أبو

---

(١١) البيان والتّبيين، ١/ ٦٥.

الحَسَن عَليُّ بنُ عَمْرٍو عَقيبَ مُنصَرَفِه مِن مِصْرَ هاربًا مُتعسِّفًا، قال: أَذَمَّ(*) لنا غُلامٌ - أحسَبُه قال: مِن طَيِّئ - مِن باديةِ الشّأم، وكان نَجيبًا متيقِّظًا، يُكْنى أبا الحُسَين ويُخاطَبُ بالأمير، فبَعُدْنا عن الماءِ في بعض الوقت، فأضرَّ ذلك بِنا، قال: فقالَ لَنا ذلك الغُلامُ: عَلَى رِسْلِكُم، فإنّي أَشَمُّ رائحةَ الماء. فأوقفَنا بِحَيْثُ كُنّا، وأجْرَى فرسَهُ، فتشرّفَ ههنا مستشِفًّا(*)، ثمّ عدَلَ عن ذلك الموضِعِ إلى آخَرَ مُسْتَرْوِحًا لِلْماءِ، ففعَلَ ذلك دَفَعاتٍ. ثمّ غابَ عَنّا شيئًا، وعادَ إلينا، فقالَ: النّجاةَ والغَنيمةَ، سِيروا عَلَى اسْمِ الله تعالى. فسِرْنا مَعَه قَدْرًا مِن الأرْضِ صالِحًا، فأشْرَفَ بِنا عَلَى بئرٍ، فاستقَيْنا وأَرْوينا»(١٢).

ويستنبطُ الإدراكُ العامُّ لِلرّوايةِ التي بينَ أيدينا، أنّ تقديرًا كبيرًا لِهذا النّمطِ مِن الحساسيَةِ المعرفيّةِ الكَشْفيّة، بَقِيَتْ مِنه بقيّةٌ حتّى القرنِ الرّابعِ الهجريّ الذي عاشَ فيه ابنُ جِنّي وأشباهُه مِن أفذاذ العُلَماء. ونَسَبَ الرّاوي هذا الفَتَى الأَلْمعيَّ المتوقِّدَ الذّكاء إلى باديةِ الشّام. وقد ميّزَ المفكِّرونَ العربُ القُدَماءُ بينَ بيئتَيْنِ للعربيّة: إحداهما تَرْعَى اللّغةَ إلى الغاية، وثانيتُهما تُفسِدُ اللّغة. وإلى هذا يَقْصِدُ الجاحظُ حينَ يقولُ: «ومتَى وَجَدَ النّحْويّونَ أَعْرابيًّا يفهَمُ هذا وأشباهَه [مِمّا خالَفَ مجاريَ كلامِ العَرَبِ الفُصَحاء] بَهْرَجوه ولم يسمعوا مِنه؛ لِأنّ ذلك يَدُلُّ عَلَى طُولِ إقامتِه في الدّارِ التي تُفسِدُ اللّغةَ وتَنقُصُ البيانَ؛ لِأنّ تلكَ اللّغةَ إنّما انقادَتْ واستوَتْ، واطّرَدَتْ وتكامَلَتْ، بِالخِصالِ التي اجتمعَتْ لها في تلك الجزيرةِ، وفي تلك الجِيرة»(١٣).

(*) أخذَ لَنا الذِّمّةَ والأمانَ.

(*) مُتطلِّعًا متأمِّلًا.

(١٢) الخصائص، ١/ ٨٠.

(١٣) البيان والتّبيين، ١/ ١٢٤.

والجاحظُ هنا يشيرُ، عَلَى طريقة المعتزلة، إلى اصطلاحيّة اللّغـةِ، وإلـى زَمـانٍ مَديـدٍ ينبغـي أن يكـونَ قـد مضَـى قبْـلَ أن تكـونَ العربيّـةُ قـد انقـادَتْ واسـتوَتْ واطّـردَتْ وتكامَلَـتْ، بالخِصـال التـي اجتمعَـتْ لَهـا فـي جَزيـرةِ العرب. ويعني هذا «عِنايةً مُشدَّدةً» - باصطلاحِ أطبّاءِ زمانِنا - بِالبيانِ العربـيّ حركاتٍ ومُفرداتٍ وتراكيبَ وأساليبَ. وقد حاجَّ العلّامةُ ابنُ جِنّي فـي هـذا طويلًا، وأكّدَ أنّ بِنْيَةَ الكلامِ العربيّ نفسَها تَشْهَدُ أنّ شُغْلًا كثيـرًا انصَـرَفَ إلـى البيانِ العربيّ لكي يَصِلَ إلى ما وَصَلَ إليه مِن إتقـانٍ وانسـجامٍ وإحكـامٍ قَبْـلَ فَجْـرِ الإسـلامِ بكثيـر. وأرجَـعَ صـاحِبُ الخصـائصِ ذلـك إلـى طبيعـةٍ فـي الشّخصيّةِ العربيّة، التي أظْهَرَهـا صـائغةً لِلُغـةٍ لَعلّهـا أَجْمَـلُ اللّغـاتِ وأبينُهـا وأفصَحُها وأقدَرُها عَلَى التّعبيرِ عن المقاصِدِ التـي تَجِـدُّ مـعَ تقـدُّمِ العُصـور. وابتغاءَ الإيضاح، آذَنُ لنفسي باقتباسِ قَدْرٍ طويلٍ نسبيًّا مِمّـا قالَـهُ هـذا العـالِمُ في تأكيـدِ إيمانـه بِـأنّ جُهْـدًا عظيمًـا أَوْلاهُ عَـرَبٌ دمِثُـونَ رقيقـونَ حَسّاسُـونَ عالِمونَ لِبيانِ لُغتِهم وفصاحتِها وبلاغتِها:

«فإنْ قُلْتَ: ومِن أين يُعْلَمُ أنّ العربَ قد راعَتْ هذا الأَمْرَ [صَـقْلَ الكـلامِ العربيّ، وإحكامَ صَـنْعتِه] واسْتَشـفَّتْه، وعُنيَـتْ بِأحوالِـهِ، حتّـى تحامَـتْ هـذه المواضِعَ التّحاميَ الذي نَسَبْتَه إليهـا، وزَعَمْتَـه مُـرادًا لَهـا؟- ومـا أنكَـرْتَ أن يكونَ القومُ [العَرَبُ] أجْفَى طِباعًا، وأيبَسَ طِينًا، مِن أن يَصِلُوا مِن النّظَـرِ إلـى هذا القَدْرِ اللّطيفِ الدّقيقِ، الذي لا يَصِحُّ لِذِي الرِّقّةِ والدِّقّةِ مِنّا أن يتصوّرَه إلّا بَعْدَ أن تُوضَحَ له أنحاؤه، بل أن تُشرَّحَ له أعضاؤهُ؟ قِيـلَ لَـكَ: هَيْهـاتَ!- مـا أبعدَكَ عن تصوُّرِ أحوالِهم، وبُعْدِ أغراضِهِم، ولُطْفِ أسرارِهم!، حتّى كأنّـكَ لم تَرَهُمْ وقد ضايقُوا أنفُسَهم، وخَفّفوا عن أَلْسِنتهم، بِأَنِ اختلَسُـوا الحركـاتِ اختلاسًا، وأخفَوْها فلم يُمكّنوها في أماكنَ كثيرةٍ ولم يُشبِعُوها. ألا ترى إلى

قِراءةِ أبي عَمْرو: ﴿مَالَكَ لَاتَأْمَنَّاعَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ١١]، مُخْتلِسًا، لا مُحقِّقًا. وكذلك قولُه عزَّ وجَلّ: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، مُختلِسًا غيرَ ممكِّنٍ كَسْرَ الهمزة، حتّى دَعا ذلك مَن لَطُفَ عليه تحصيلُ اللّفظِ، إلى أنِ ادّعَى أنّ أبا عَمْرٍو كان يُسَكِّنُ الهمزة...»(١٤).

ومَرْجِعُ استيقانِنا أهليّةَ ابنِ جِنِّي لِأن تُسْمَعَ شهادتُه في أمْرِ عنايةِ العَرَبِ ببيانهم إلى حَدِّ الهَوَس أمْران:

- أوّلُهما أنّه انشغَلَ هو نفسُه بِسِحْرِ البيانِ العربيّ وخِلابتِه وَقْتًا طويلًا حتّى وَصَلَ في بعضِ الوقتِ إلى اعتدادِ العربيّة إلهامًا مِن الحَقِّ تعالى، وفي وقتٍ آخَرَ إلى حُسْبانِها اصطلاحًا وتواضُعًا. وهو في هذا المعنى يقولُ:

«واعْلَمْ فيما بَعْدُ، أنّني عَلَى تَقادُمِ الوقتِ، دائمُ التّنقيرِ والبحث عن هذا الموضِعِ، فأجِدُ الدَّواعيَ والخَوالِجَ(*) قويّةَ التّجاذُبِ لي، مختلِفةَ جهاتِ التّغَوُّلِ عَلَى فِكْري. وذلكَ أنّني إذا تأمَّلْتُ حالَ هذه اللّغةِ الشّريفةِ، الكريمةِ اللّطيفة، وجدتُ فيها مِن الحِكْمةِ والدّقّةِ، والإرهافِ والرِّقّة، ما يَملِكُ عَلَيَّ جانِبَ الفِكْر، حتّى يكاد يطمَحُ به أمامَ غَلْوَةِ السِّحْر. فمِنْ ذلك ما نبّهَ عليه أصحابُنا رَحِمَهمُ اللهُ، ومِنه ما حَذَوتُه عَلَى أمثلتِهم، فعَرَفْتُ بتتابُعِهِ وانقيادِه، وبُعْدِ مَراميهِ وآمادِه، صِحّةَ ما وُفِّقُوا لِتقديمِه مِنه، ولُطْفَ ما أُسْعِدوا به، وفُرِقَ لهم عنه. وانضافَ إلى ذلك وارِدُ الأخبارِ المأثورة بِأنّها مِن عِنْدِ اللهِ جَلَّ وعَزّ؛ فقَوِيَ في نفسي اعتقادُ كونِها تَوقيفًا(*) مِن الله سُبْحانَه، وأنّها وَحْيٌ.

ثمّ أقولُ في ضِدِّ هذا: كما وَقَعَ لِأصحابِنا ولَنا، وتنبَّهُوا وتنبَّهْنا عَلَى تأمُّلِ

---

(١٤) الخصائص، ١/ ٧٢.

(*) الأمور التي تدفعُه عن قبولِ الأمر، وهي ضِدُّ الدّواعي.

(*) «توفيقًا» في الأصل.

هذه الحِكْمةِ الرّائعةِ الباهرة، كذلك لا نُنكِرُ أن يكونَ اللهُ تعالى قد خَلَقَ مِن قَبْلِنا - وإن بَعُدَ مَداهُ عنّا - مَن كان ألطفَ مِنّا أذهانًا، وأسْرَعَ خواطِرَ وأَجْرَأَ جَنانًا. فأقفُ بينَ هاتَيْنِ الخَلّتَيْنِ حَسِيرًا، وأُكاثِرُهما فأنكفئُ مَكْثورًا. وإن خَطَرَ خاطِرٌ فيما بَعْدُ، يُعلِّقُ الكَفَّ بإحْدَى الجهتَيْنِ، ويكفُّها عن صاحبتها، قُلْنا به، وباللهِ التّوفيق»(١٥).

- الثّاني أنّه قدّمَ أدلّةً كثيرةً عَلَى أنّ الجِبِلّةَ العربيّةَ كأنّها خُلِقَتْ هكذا مُنتجةً لُغةً، كُلُّ مُكوِّنٍ مِن مُكوِّناتِها مُعبِّرٌ عن انتظامٍ في بِناءٍ مُتناغِمٍ مُتآزِرٍ رامٍ بكُلّيّته إلى قَصْدِ الإبانةِ بِحُسْنٍ.

وإن صَحَّ أنّ الحِسَّ الطّبيعيَّ عندَ العَرَبِ هو المنشئُ لِلْبيانِ العربيّ، دَلَّ كمالُ هذا البيانِ وجَمالُ هذا الأداءِ في لُغةِ العرب عَلَى حِسٍّ طَبيعيّ خاصٍّ لهؤلاءِ القوم؛ حِسٍّ مُبْدِعٍ في غايةِ اللُّطْفِ والخُبْرِ والتّمييز، كان مِن عَمَله، لو صَحّ ذلك، لُغةٌ مُبينةٌ نَفَتْ عنها كُلَّ ما يثْقُلُ عَلَى اللِّسان، ويَعوقُ البَيان. يقولُ ابن جِنّي:

«قال أبو إسحاقَ [الزّجّاجُ] في رَفْعِ الفاعِلِ ونَصْبِ المفعول: إنّما فُعِلَ ذلك لِلْفَرْقِ بينَهما. ثمّ سألَ نفسَه فقال: فإن قِيلَ: فهَلّا عُكِسَتِ الحالُ فكانَتْ فَرْقًا أيضًا؟- قِيلَ: الذي فَعلُوه أحْزَمُ؛ وذلك أنّ الفعلَ لا يكونُ له أكثَرُ مِن فاعِلٍ واحِدٍ، وقد يكون له مفعولاتٌ كثيرةٌ، فَرُفِعَ الفاعِلُ لِقِلّتِه، ونُصِبَ المفعولُ لِكثرتِه؛ وذلك لِيَقِلَّ في كلامِهم ما يستثقِلونَ، ويكثُرَ في كلامِهم ما يستخِفّونَ. فَجرَى ذلك في وُجوبِه، ووضوحِ أمْرِه، مَجْرَى شُكْرِ المُنعِم، وذَمِّ المُسيء في انطواءِ الأنفُسِ عليه، وزَوالِ اختلافِها فيه، ومَجْرَى وجوبِ طاعةِ القديمِ سُبْحانَه، لِما يُعقِبُهُ مِن إنعامِهِ وغُفْرانه»(١٦).

---

(١٥) السّابق، ١/ ٤٧.

(١٦) الخصائص، ١/ ٤٩.

ويقدِّمُ لنا ابنُ جِنّي تصويرًا أخّاذًا متخيَّلًا لِجُهْدِ العربيّ في صَوْغِ مَنْحوتةِ البيانِ العربيّ، تصويرًا يقولُ لنا إنّ طاقةً فِكْريّةً مُذْهِلةً قد أُعْمِلَتْ في تشكيلِ بِنْيةِ العربيّةِ عَلَى نحوٍ مِن التّهذيبِ والتّصفيةِ والصَّقْلِ لا يُبقي إلّا جَوْهَرَ الجوهرِ ورُوحَ الرّوحِ وصَفاءَ الصّفاء. يقولُ صاحِبُ الخصائص:

«اعْلَمْ أنّ واضِعَ اللّغةِ لَمّا أرادَ صَوْغَها، وترتيبَ أحوالِها، هَجَمَ بِفِكْره عَلَى جميعها، ورأى بِعَيْنِ تصوّرِه وُجوهَ جَمْلِها وتفاصيلِها، وعَلِمَ أنّه لا بُدَّ مِن رَفْضِ ما شَنُعَ تألُّفُه مِنها، نحو: هع، وقح، وكق، فنَفاهُ عن نفسِه، ولم يُمْرِرْه بِشَيءٍ مِن لَفْظِه؛ وعَلِمَ أيضًا أنّ ما طالَ وأَمَلَّ بِكَثْرةِ حُروفِه لا يُمكنُ فيه مِن التّصرُّفِ ما أمكنَ في أعْدَلِ الأصولِ وأخفِّها، وهو الثّلاثيّ. وذلك أنّ التّصرُّفَ في الأَصْلِ، وإن دَعا إليه قِياسٌ – وهو الاتّساعُ به في الأسماءِ والأفعالِ والحروف – فإنّ هناكَ مِن وَجْهٍ آخَرَ ناهيًا عنه، ومُوحِشًا مِنه؛ وهو أنّ في نَقْلِ الأَصْلِ إلى أَصْلٍ آخَرَ نحو: صَبَرَ، وبَصَرَ، وصَرَبَ، ورَبَصَ، صُورةَ الإعلالِ، نحو قولهم: «ما أَطْيَبَهُ، وأَيْطَبَهُ!»، و«اضمحلَّ وامضَحَلَّ»... فلمّا كان انتقالُهم مِن أَصْلٍ إلى أَصْلٍ، نحو: صَبَرَ وبَصَرَ، مُشابِهًا لِلإعلالِ مِن حَيْثُ ذَكَرْنا، كان مِن هذا الوَجْهِ كالعاذِرِ لهم في الامتناعِ مِن استيفاءِ جميع ما تحتمِلُه قِسْمةُ التّركيب في الأصول. فلَمّا كان الأمْرُ كذلك، واقتضَتِ الصُّورةُ رَفْضَ البعضِ واستعمالَ البعض، وكانتِ الأصولُ ومَوادُّ الكَلِمِ مُعْرِضةً لهم وعارضةً أنفُسَها عَلَى تخيُّرِهم، جَرَتْ لِذلك عندَهم مَجْرَى مالٍ مُلْقًى بينَ يَدَيْ صاحِبِه، وقد أجمعَ إنفاقَ بعضِه دُونَ بعضِه، فمَيَّزَ رَديئَه وزائفَه، فنَفاهُ البَتّةَ، كما نفَوا عنهم تركيبَ ما قَبُحَ تأليفُه، ثمّ ضَرَبَ بِيَدِه إلى ما أطفَّ(*) له مِن عُرُضِ جيِّدِه، فتَناولَه لِلْحاجة إليه»(١٧).

(*) قَرُبَ مِنه ودَنا.

(١٧) الخصائص، ١/ ٦٤-٦٥.

وظاهِرٌ أنّ العقلَ النّظَريَّ المتأمِّلَ، عندَ ابنِ جِنِّي هنا، هو الذي يَنشَطُ في تقديمِ تصوُّرٍ ذِهْنيٍّ لإنتاجِ الكلامِ العربيِّ وتَخْليقِه. وفي هذا يقينًا تجريدٌ واضِحٌ يختَصِرُ عَمَلَ جَماعاتٍ مِن البَشَرِ في أعصارٍ مُتطاولةٍ.

خامسًا – إظهارُ اللّغةِ العربيّةِ العَرَبَ منقادينَ لِلْفِطْرةِ والطّبع:

تخضَعُ ألفاظُ اللّغاتِ جميعًا لِضَرورتَيْنِ مُتبايِنتَيْنِ في طبيعتَيْهما هما: ضَرورةُ الإبانةِ عن المُسمَّى وتَعْيينِه، واقتصادُ الجُهْدِ المَبذولِ في النّطْق. وقدّمَ الشّيخُ ابنُ جِنِّي شاهدَيْنِ مُوضِحَيْنِ تمامًا لِما نحن إزاءَهُ، وعَلّقَ عَلَى كُلٍّ مِنهما تعليقًا في غايةِ الإصابة والاستنباط. وننقُلُ هنا الشّاهِدَيْنِ والتّعليقَيْن:

– الأوّلُ أنّه رُوِيَ عن أبي حاتمٍ، سَهْلِ بنِ محمَّدٍ السِّجِسْتانيّ، في كتابِه الكبير في القِراءاتِ قولُه:

«قرأَ عَلَيَّ أعرابيٌّ بالحَرَم: «طِيبَى لَهُمْ وحُسْنُ مآبٍ»، فقُلْتُ: «طُوبَى»، فقالَ: «طِيبَى»، فأعَدْتُ فقُلْتُ: «طُوبَى»، فقال: «طِيبَى». فلَمّا طالَ عَلَيَّ قُلْتُ: «طُو» «طُو». قالَ: «طِي» «طِي». أفلا ترى إلى هذا الأعرابيِّ، وأنتَ تعتقِدُه حافِيًا كزًّا، لا دَمِثًا ولا طَيِّعًا، كيفَ نَبا به طَبْعُه عن ثِقَلِ الواو إلى الياءِ، فلم يُؤثِّرْ فيه التّلقينُ، ولا ثَنَى طَبْعَه عن التماسِ الخِفّةِ هَزٌّ ولا تَمْرين، وما ظَنُّكَ به إذا خُلِّيَ مَعَ سَوْمِه(*)، وتَسانَدَ إلى سَليقيّتِه ونَجْرِه؟»(١٨).

– الثّاني قولُ ابنِ جِنِّي:

«سأَلْتُ يومًا أبا عبدِاللهِ مُحمَّدَ بنَ العَسّافِ العُقَيْليّ الجُوثيّ، التّميميّ – تميم جُوثة – فقُلْتُ له: كيفَ تقولُ: ضَرَبْتُ أخوكَ؟ – فقال أقولُ: ضَرَبْتُ أخاكَ. فأدَرْتُه عَلَى الرَّفْعِ فأبَى، وقال: لا أقولُ: أخوكَ أبدًا. قُلْتُ: فكيفَ

(*) يقالُ: خُلِّيَ معَ سَوْمِه: إذا تُرِكَ يفعَلُ ما يختارُ.

(١٨) الخصائص، ١/ ٧٦.

تقولُ: ضربَني أخوك؟- فرَفَعَ. فقُلْتُ: ألَسْتَ زَعَمْتَ أنّكَ لا تقولُ: «أخوكَ» أبدًا؟- فقال: أَيْشٍ هذا! اختلفَتْ جِهتا الكلام. فهل هذا إلّا أَدَلُّ شيءٍ عَلَى تأمُّلِهم مَواقِعَ الكلامِ، وإعطائهم إيّاهُ في كُلِّ موضِعٍ حَقَّه، وحِصّتَه مِن الإعراب، عن مِيزةٍ، وعلى بصيرةٍ، وأنّه ليس استرسالًا ولا ترجيمًا؟»(١٩).

وهذانِ اثنانِ فقط مِمّا لا يُحصَى عَدًّا مِن صُوَرِ الانقيادِ لِلْجِبلّة في إخراجِ الكلامِ العربيّ. ولَعلَّني أُصِيبُ حِينَ أعيدُ إلى الأذهانِ قولَ المولَى سُبْحانَه في الذِّكْرِ الحكيمِ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨]؛ ابتغاءَ أن أقولَ: إنّ هذه العربيّةَ الجميلةَ دَليلٌ عَلَى قابليّةٍ جيِّدةٍ عندَ هؤلاء الذين جَرَتْ عَلَى عَذَباتِ ألسنتهم زَمَنًا طويلًا، وحافظوا عَلَى صُورتِها، وذَبُّوا عنها كُلَّ ما يَشينُها. وإنّه لِأمْرٍ ما تهيَّأَ لهذه اللّغةِ مَعْقِلٌ حَصينٌ داخِلَ جَزيرةِ العرب وما داناها، أسْهَمَ مَع عوامِلَ أُخَرَ في إنمائها وتهذيبِها وتَجْويدِها؛ فجاءَتْ أبنيتُها الصّوتيّةُ والصَّرْفيّةُ والدّلاليّةُ وِفاقًا لِحِسِّهم الطّبيعيّ المُتساوِقِ مع بيئتِهم وتكوينهم وقابليّاتهم.

سادسًا- القرآنُ الكريم يُعزِّزُ الطّبيعةَ البيانيّةَ لِلشّخصيّة العربيّة:

يلفِتُ انتباهَ المتأمِّلِ أنّ قُرَيشًا جمعَتْ بينَ الزّعامةِ الدّينيّةِ والزّعامةِ اللّغويّة في المرحلةِ التي سَبقَت بزوغَ فَجْرِ الإسلام. وقد جَعَلَ القرآنُ الكريمُ أَحْسَنَ القولِ قولَ مَن دَعَا إلى الله، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ويُفهَمُ مِن كلامٍ لِلْجاحظِ أنّ الله سُبْحانَه يُجمِّلُ كلامَ مَن يدعو إلى الله بإخلاصٍ وصِدْق. ومَثّلَ الجاحِظُ لِذلك بِحالِ قُسِّ بنِ ساعدةَ الإياديّ الذي بَلَغَ الذِّرْوةَ في الفصاحةِ والبلاغة. يقولُ الجاحظُ: «ولِإيادٍ وتَميمٍ في

(١٩) السّابق.

الخُطَبِ خَصْلةٌ ليسَتْ لِأحَدٍ مِن العرب؛ لِأنّ رسـولَ اللهِ ﷺ هـو الـذي رَوى كلامَ قُسِّ بنِ ساعِدةَ وموقفَه عَلَى جَمَلِهِ بعُكاظَ وموعظتَـه، وهـو الـذي رَوّاهُ لِقُريشٍ والعرَب، وهو الذي عَجّبَ مِن حُسْنِه وأظهرَ مِن تصويبه. وهذا إسنادٌ تَعجزُ عنه الأمانيُّ، وتنقطِعُ دُونَه الآمالُ. وإنّما وفّقَ اللهُ ذلك الكلامَ لِقُسِّ بـنِ ساعِدةَ لِاحتجاجِه لِلتّوحيد، ولِإظهـارِهِ معنَـى الإخـلاص، وإيمانِـهِ بالبَعْـث. ولذلك كان خطيبَ العربِ قاطبةً»[٢٠].

وقد تحدّثَ القرآنُ الكريمُ عن جُمهـورٍ ذي صِـنْفَيْنِ لِلْبَيـانِ الإلهـيِّ فـي هــذا الكتــاب الإلهــيّ فقــال: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وفي المستطاعِ فَهْمُ هذا عَلَى أكثرَ مِن وَجْه، أظهَرُها أنّ القرآنَ عندَ عامّةِ النّاسِ بَيانٌ لِحقائقِ الأمـورِ التـي يَعْلَمُهـا العَليـمُ وَحْـدَه، وأنّـه عنـدَ المتّقيـنَ خاصّةً هادٍ وواعِظٌ، بل هو عَيْنُ الهُدَى والموعظة.

وقد وَضَعَ القرآنُ بين أيدي العرب نَموذجًا عاليًا جدًّا لِلْبيانِ ظَلُّوا يقيسونَ كلامَهم عَلَى فَصاحتِه وبلاغتِه، ويقتبسونَ مِن مفرداتِه وأساليبه واستعمالاتِه مـا يَخالونَ أنّه الجواهِرُ التي تَزينُ تيجانَ كلامهم. وبَـثَّ بيـانُ الـذِّكْرِ الحكيـمِ فـي العَرَبِ محبّةً لِلَّسَنِ والفَصاحة، واسـتعدادًا لِإصـلاحِ مَـنطِقِهم، وحِرْصًـا عَلَـى عَرْضِ كلامِهم في مَعارضَ تُحرِّكُ النّفوسَ وتَهُزُّ الطِّباعَ. وضَمِنَ البيانُ القرآنيُّ لِلعربيّةِ البقاءَ والخلودَ، وهَيّأَ الأجيالَ في الأعصُرِ المتعاقبـةِ لِلاحتفـاءِ بِالعربيّـةِ تعلُّمًا وتعليمًا وتأليفًـا. وإذا كـان الجـاحِظُ قـد تحـدّثَ عـن المضـمونِ الـذي يُجمِّلُ الشّكْلَ في خَطابةِ قُسِّ بنِ ساعِدةَ، فستظلُّ المعـاني الإلهيّـةُ فـي القـرآنِ الكريم آلةً لِلْإجادةِ والإتقانِ في العربيّة التي يتحدّثُ بِها النّـاسُ، وسـيَظلُّ بَيـانُ

---

(٢٠) البيان والتّبيين، ج١/ ٥٥.

القرآنِ نُورًا عَلَى نُورِ الطّبيعةِ البيانيّة لِلشّخصيّة العربيّة. وقد يَضعُفُ يَقينُ الخَلْقِ بِهذا الذي نقولُه، وهذا شأنُهم الذي لا نُحاجُّ فيه، أمّا «الفعّالُ لِما يُريدُ» فيفعَلُ ما يشاءُ، ويجعَلُ فِيما لا غَناءَ فيه كُلَّ الغَناء، وسَيظلُّ البيانُ الإلهيُّ في القرآنِ نصيرَ العربيّةِ الآتيَ مِن السَّماء.

المحصولُ النّهائيُّ:

أظهرَتِ المناقشةُ في نِقاطِ البَحْثِ أنّ لفظَ «العرَب» كان في الأَصْلِ وَصْفًا بِالإبانةِ والإفصاح لِهذا الجِنْسِ مِن البَشَر، الذين سَكَنُوا هذه الجزيرةَ المنسوبةَ إليهم، ثمّ صار اسْمًا غَلَبَ عليهم، وأنّ هؤلاءِ القومَ انجذبوا إلى الصِّفةِ البيانيّة وآثَرُوها باهتمامٍ خاصّ لم يكُنْ منهم إزاءَ الصّفاتِ الجماليّة الأُخَرِ، وأنّهم تطلّبوا صِفاتِ جَمالِ الخِلَقِ البشريّةِ لِتكونَ صِفاتٍ مؤثِّرةً في بيانِ لُغتهم، وأنّهم اجتهدوا كثيرًا في تحسينِ بيانهم وتهذيبه وصَقْلِه، فكان لهم ما أرادوا، وأنّ اللّغةَ العربيّةَ أبرزتِ العرَبَ مُنقادينَ في إعدادِ لُغتِهم لِفطَرِهم وطِباعِهم، وأنّ بَيانَ القرآنِ الكريم عَزّزَ الخاصّيّاتِ البَيانيّةَ لِلشّخصيّةِ العربيّة، وضَمِنَ لِلْعربيّةِ البقاءَ والخُلود، وعنصرًا دافعًا إلى التّجويد المستمرّ الذي لا يقفُ عندَ حدود.

* * *

المصادر والمراجع

القرآنُ الكريم.

- أحمد بن فارس: معجَمُ مقاييس اللّغة، بِتحقيق عبد السّلام هارون، نَشْرة اتّحاد الكتّاب العرب في دمشق، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- الجاحظ: البيانُ والتّبيين، بِتحقيق هارون، ابن سِينا للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ٢٠١٠م.
- ابن جِنّي، أبو الفتح عثمان: الخصائص، الجزء الأوّل، بِتحقيق محمّد علي النّجّار، مصوّرة عن طبعة دار الكتب المصريّة، الهيئة العامّة لِقُصور الثّقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- الرّاغِبُ الأصفهاني: مفرداتُ ألفاظِ القرآن، بِتحقيق صفوان داوودي، دار القلم في دمشق، ط٣، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

* * *